

الطب الشعبي في المجتمع الجزائري

أ. ناصر نجاة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة تلمسان

الملخص:

تزرع الجزائر بتراث استشفائي غني ومتنوع سواء ما تعلق منه بالتداوي بالأعشاب أو الممارسات العلاجية الشعبية الأخرى التي برهنت على فعاليتها في احتواء وعلاج حالات مرضية عدة العضوية منها والنفسية، يجب الاستفادة منه إلى أقصى حد.

مقدمة:

ترتكز المعتقدات والممارسات الطبية والشعبية لدى جميع الشعوب وفي كل العصور على معتقد أساسي يرى أن الله خلق لكل داء دواء وعلى الإنسان أن يسلك الطريق السليم للبحث عن هذا الدواء، ولا تختلف أقدم الشعوب البدائية مع الطبقات الشعبية في أي مجتمع حديث في هذا الأمر لأن الممارسة الطبية الشعبية كانت تتركز في جانب كبير منها على المحاولة والخطأ فقد كان من الطبيعي أن تتزايد درجة إتقان الشعب لطرق العلاج الشعبي على

مدار العصور، وتؤكد "فلوكين" أن تاريخ الطب الشعبي في العالم ليس إلا تاريخ الطب نفسه¹.

لما كان الطب الشعبي يمثل أحد جوانب القيم والمعرفة الثقافية فإنه ينظر إليه على أنه نظام علاجي يُبنى على أشكال وأساليب تقليدية من الممارسات والأعمال التي تقاوم المرض، ويختلف الطب الشعبي عن كثير من المعتقدات الشعبية فهو لا يندرج كله تحت الأشكال الوهمية، كما أنه ليس فكراً خرافياً أو غيبياً، فليس من المتوقع أن يختفي اختفاءً كلياً في المجتمعات التي تأخذ بأساليب العلم الحديث، وذلك لأنه يتضمن في بعض جوانبه خبرة شعبية متوارثة صقلتها المحاولة والخطأ وينتقل من جيل إلى جيل من خلال المشافهة². والطب الشعبي جزء من التراث الشعبي الذي يعد من أهم المعطيات الثقافية التي تحدد هوية الإنسان ماضيه وحاضره وتخطط لمستقبله³.

إن المجتمع الجزائري كغيره من الأمم الأخرى يتوافر على تراث شعبي ضخم ومتنوع تمثل المعتقدات قسماً هاماً منه كونها تترجم الخبايا الباطنية للشعب، وقد تم اختيارنا على جزء من هذه المعتقدات والمعارف الشعبية كموضوع بحثنا المعنون ب: **الطب الشعبي في الجزائر**.

أولاً: نشأة الطب الشعبي

تعود أصول الطب الشعبي إلى بدايات محاولات الإنسان الأولى في معالجته الجروح والكسور والأمراض، وتشير بعض المكتشفات الأثرية إلى نشوء مهنة الطب لدى السومريين والبابليين، وقد أفرزت المدينيات القديمة في الصين والهند ومصر واليونان تقدماً في العلاجات

الطبيعية، ثم جاء العرب ليساهموا في علم الطب، وبدأت نهضتهم مع الفتوح الإسلامية وبداية رواج ترجمة الكتب القديمة في الكيمياء والطب والفلك عن اليونانية والسريانية والفارسية.

1: تعريفات الطب الشعبي

مجموعة من المعتقدات الشعبية والممارسات العلاجية التي استخدمت منذ أزمان بعيدة في كل الثقافات القديمة لمعالجة الأمراض بواسطة مجموعة من الأشخاص ممن يعتقدون أنهم يملكون القدرة على معالجة الناس، ويعد نظاماً غير رسمي في البناء الصحي، على الرغم من أنه قد يتم تدريب المختصين فيه في مراكز تدريب مهنية رسمية، ويمارس بواسطة ممارسين طبيين من خارج المؤسسات الطبية الرسمية، وتكون وسائله العلاجية إما وسائل جيدة مستمدة من موروثات سامية قديمة، أو قد تكون وسائل علاجية رديئة كالتعلاج بها المجتمعات البدائية نفسها، بدلاً من العناية الطبية المدربة.

تنظر منظمة الصحة العالمية إلى الطب الشعبي على أنه شكل من أشكال الطب التقليدي، وتعرفه أنه يشير إلى الطرق والوسائل التي وجدت قبل ظهور الطب العلمي الحديث⁴. أما الجمعية الطبية الأمريكية فقد عرفت الطب الشعبي على أنه مصطلح كثيراً ما يستخدم في المراجع العلمية بالتبادل مع مصطلح الطب البديل ومصطلح الطب المكمل⁵. يحفظ الطب الشعبي بين الشعوب البدائية ويتناقل بالتراث الشفهي، بوصفه جزءاً من التقاليد الاجتماعية والأدب الشعبي، ومن أنواعه الرقية، والتعاويذ، الكمادات، والحجامة، واستعمال

دودة العلق، والكلي، والتدليك، كما عرفت الجراحة منذ آلاف السنين وتقتصر على التجبير، وتتكون الأدوية المحلية في الأغلب، من أشربة ومراهم محضرة من الأعشاب والبذور⁶.

وفي تعريف آخر لفوزي عبد الرحمن: "هو أساليب وطرق معينة تستعمل فيه غالبا الأعشاب والنباتات الطبية على شكل خلاصات كيميائية بتأثير بعض المعتقدات والأفكار السائدة في المجتمع"⁷.

2: لمحة تاريخية عن الطب الشعبي في الحضارات القديمة

*عند البابليين:

يعتبر البابليون أول من استخدم التنجيم في الطب، كما اهتمت المدينة البابلية بالطب، فبحثت في المداواة والعلاجات، كما اعتبر البابليون أول شعب أو حضارة عرفت القانون وكان ذلك على يد "حمورابي"، أما فيما يتعلق بالميدان الطبي، فلقد كانت النصوص القانونية واضحة جدا فتناولت أجور الأطباء وحددت، كما حذرت الأطباء من الوقوع في الخطأ وجعلتهم مسؤولين عن الأخطاء التي يرتكبونها فتؤذي بحياة المريض، وكان الأطباء عند البابليين مقسمين إلى ثلاث أقسام:

- فئة المعالجون بالنصح.
 - فئة المعالجون بالأدوية النباتية والحيوانية والمعدنية.
 - فئة المعالجون الذين يستعينون بالطلاسم والاعتقادات.
- وتذكر الدراسات التاريخية أن البابليين عرفوا أكثر من 350 عشبة طبية و 180 عقارا معدنيا وحيوانيا⁸.

***عند المصريين القدامى:**

لقد كان للمصريين القدامى كذلك معرفة واسعة في ميدان التداوي بالأعشاب، ولم تكن معرفتهم تقل عن معرفة البابليين حول الطرائق العلاجية، فلقد وجدت مستحضرات وعقاقير علاجية في مصر وذلك حوالي 1550 ق.م تقريبا. ولا تزال بعض هذه المستحضرات تستعمل حتى هذا اليوم، ولقد أبدى الأطباء المصريون آنذاك مهارات وخبرات عالية في عملية اختيار المواد العلاجية وتحضيرها بدقة وإدخالها ضمن الخطط العلاجية، وحسب ما ذكره الباحث الألماني "جورج إيبس" واستنادا على ما قرأه في المخطوطات الهيروغليفية المكتوبة على ورق البردة، إن الطب المصري الشعبي ضم فترة تقدر بحوالي 2000 سنة ق.م وكان لهم حقائق خاصة بالنباتات الطبية كما أنهم عرفوا 400 مفردة منها نباتية وحيوانية ومعدينة⁹، وعثر "جورج إيبس" على وصفة طبية في الأقصر عام 1873 واعتبرت تلك الوصفة أقدم وثيقة طبية مكتوبة. فالطب كان في نظر المصريين القدامى مجالا من المجالات التي تندرج ضمن علم العبادات، لذلك اعتمدوا على الآلهة عند التطبيب.

***عند الصينيين:**

لقد عرف الصينيون الطب منذ زمن طويل، فلقد بحثوا في هذا المجال مطولا ولا زال انشغالهم في تواصل إلى حد الآن خاصة فيما يتعلق بالعلاجات التقليدية، وارتبط الطب عند الصينيين بالحياة الدينية والفلسفية حيث كانوا يعالجون الكثير من الأمراض وإلى حد اليوم بالمعتقدات الدينية فاعتمدوا على المفردات النباتية والوسائل الطبيعية والحمامات والحجامة، ولقد كان لهم الفضل الكبير في معرفة واكتشاف الوسائل والآلات الجراحية البسيطة، كما أرجع الأطباء الصينيون فيما بعد سبب العلل والأمراض إلى الطبيعة وظواهرها. فكانوا يرجعون سبب المرض إلى: البرد والرطوبة والجفاف لذلك توصلوا إلى أن الفصول مسؤولة عن

الأمراض فقالوا: إن أمراض الصدر تحدث في فصل الشتاء وأمراض الجلد في فصل الصيف. كما أن الصينيين اكتشفوا كثيرا من العقاقير كعقاقير الكافور والشاي والأفيون.... إلخ، كما وصف الإمبراطور "شيننونغ" بإمبراطور الأعشاب وهذا لمعرفته وإحصائه لحوالي 365 عشبة طبية. كما يعتبر بمثابة المكتشف الأول لعملية الوخز بالإبر واستعمال نبتة الشيش والتي لا تزال مستعملة لحد الآن، كما يقومون بتصنيف الأدوية والعقاقير ويعتبرون روادا في علم الصيدلة.

3. الطب العربي في العصر الجاهلي:

لقد كان الطب عند عرب الجاهلية تماما كما عند غيرهم من الشعوب لأن الطب من العلوم البديهية التي لا يستغني عنها البشر والاختلاف في أمر الطب هو في كيفية العلاج لا في أهميته، ولذلك نجد عرب الجاهلية تداووا بأساليب مجربة كاستعمال الكي والتداوي بالأعشاب وصولا إلى الاستعانة بالسحر والشعوذة¹⁰. وقد استفاد العرب من الحضارات السابقة (الرومانية والفارسية) وازدهر الطب الشعبي عندهم بشكل كبير وكان العرب في العصر الجاهلي يمارسون الطب على نطاق واسع مازجين تجاربهم بتجارب جيرانهم من الشعوب الأخرى، وقد ذكر أن أول من تعاطى الطب من العرب بعد الكهنة هم جماعة ممن خالطوا الروم والفرس في القرن السادس الميلادي، ومن أطبائهم "ابن حذيم" وكان مشهورا جدا حتى أن العرب قالوا في أمثالهم "أطب بالكي من ابن حذيم"¹¹، وإن كان مرتبطاً ببعض الممارسات من الشعوذة وبدعة تقديم القرابين للآلهة.

ومن أشهر الأطباء الذين ظهوروا في أواخر الجاهلية "الحارث بن كلدة الثقافي" الذي تعلم الطب في فارس وزاوله في بلاد العرب¹²، وهو صاحب المحاورة الطبية المشهورة مع

"كسرى"، وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة¹³، بالإضافة إلى "زهير بن جناب الحميري".

4: العصر الذهبي للطب العربي والإسلامي

ازدهر الطب العربي بعد مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أمر بالتداوي وطلب العلاج وهناك تعاليم وآداب الطب النبوي الذي اعتمد عليه الأطباء الأوائل في تسميتهم للأمراض وأساليب معالجتهم لها.

وكان العرب القدماء يؤمنون بأنه لا يوجد مرض لا يمكن علاجه بالنباتات، وقد تدرجت معرفة هذا النوع من التداوي حتى أصبح ما يسمى بالطب الشعبي في العالم العربي ولقد اشتهر العرب في تطوير التداوي بالأعشاب خلال العصور الوسطى، وانتشرت أبحاث ومخطوطات مبنية على قواعد قوية إبان العصر الذهبي للطب العربي والإسلامي، حيث انتشرت شهرة الأطباء العرب عبر العالم مع انتشار الإسلام، وبالأخص عن طريق الحجاج الذين يفدون إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وقد ساعدت هذه الشهرة بما تمتاز به الأقطار العربية من اتساع رقعتها واعتدال جوها، وكانت البيئة الصحراوية بما فيها من نباتات وأعشاب قد ساعدت أيضا على تحقيق التجربة في استخدام الأعشاب لعلاج بعض الأمراض لذلك فهي تملك ثروة طبيعية وأخرى اقتصادية هائلة من الأعشاب الطبية والعطرية، استخدمها العرب من قديم الزمان، ويشهد على ذلك ما دونوه في مذكراتهم وموسوعاتهم عن النباتات الطبية ووصف علاجاتها، وكذلك ما تحويه أسواق العطارين من الأعشاب والثمار والبذور التي يستخدمها العامة في علاج

أمراضهم، ولا يزال تجار العطارّة يستخدمون موسوعات ومؤلفات وغيرها من كتب العلماء العرب لعلاج المرضى، وبذلك يكون العرب هم من أدخل صناعة الأعشاب والعقاقير الطبية إلى أوروبا عن طريق التجارة.

ومن أشهر علماء المسلمين في الطب "أبو بكر الرازي" المتوفى سنة 311 هـ، ومن كتبه الهامة في الطب والنبات "الحاوي" و"المنصوري" و"صيدلية الطب".

ونبع بعد "الرازي" الشيخ الرئيس "أبو علي بن سينا" المتوفى سنة 428 هـ، وقد وضع "ابن سينا" كتابا أساسيا في الطب والنبات سماه "القانون"، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وظل الاعتماد عليه في الجامعات الأوروبية إلى القرن السادس عشر ميلادي.

والجدير بالذكر هنا أن الحركة العلمية الأوروبية في عصر النهضة قامت على الاستفادة من المؤلفات الإسلامية أو ترجمات المسلمين عن اليونانية ولم تأخذ عن اليونانية مباشرة.

وبعد "ابن سينا" نبغ عالم نباتي كبير هو "ضياء الدين بن البيطار" المتوفى سنة 646 هـ، ومن مؤلفاته الطبية كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" وقد استوعب فيه جميع الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية المعروفة إلى عصره معتمدا على معارف من سبقه مضيفا ما صح عنده بالتجربة والملاحظة والاختبار. ومن كتبه الهامة أيضا "مفردات الطب" وقد ترجم إلى اللاتينية وهو يحتوي على أكثر من ألفي عقار طبي معظمها من أصل نباتي.

وفي القرن السادس عشر الميلادي ألف "داود بن عمر الأنطاكي" موسوعة طبية باسم "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب" وهي المعروفة باسم تذكرة داود الأنطاكي. وتعتبر هذه الموسوعة مرجعا أساسيا في مجال الطب الشعبي أو البلدي والتداوي بالأعشاب والنباتات¹⁴.

ثانيا: الطب الشعبي في الجزائر

والحديث عن الطب الشعبي في الذاكرة الشعبية الجزائرية ينحصر مبدئيا في التداوي بالأعشاب والنباتات التي وفرتها الطبيعة له منذ القدم، وإذا كان هذا الطرح صحيحا إلى أبعد حد، فهذا لا ينفي سعي الفرد الجزائري عبر مختلف العصور التاريخية، بحثا عن طرق علاجية أخرى إلى ممارسات طقوسية، دينية مزجت بروايات خرافية وأسطورية كالرقى والتمايم والسحر، وكذا اعتماد طرق أخرى في علاج آلامه وأمراضه أثبتت نجاعتها مثل الكي والحجامة وزيارة الأضرحة والأولياء الصالحين، كعلاج روحي استقرت في وجدانه وانتقلت عبر الأجيال عن طريق الرواية والتجربة مشكلة بذلك مجالات أخرى للطب الشعبي.

فالطب الشعبي الجزائري الذي لا يزال كبار السن يمارسونه هو مهنة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ومستمرة إلى يومنا هذا، وله إقبال واسع من مختلف أفراد المجتمع، ويزاوله غالبا أشخاص يمتلكون تجربة واسعة في مجال الطب الشعبي وفي نوعية الأعشاب التي يستخدمونها لعلاج مختلف الأمراض، مستخدمين أساليب ومعارف متنوعة، كما يشمل استخدام النباتات والحيوانات والأدوية بغرض تشخيص الأمراض ومعالجتها في ضوء الخبرات والتجارب العديدة المستمدة من البيئة الجزائرية الثرية بمواردها الطبيعية.

وأراضي الجزائر مليئة بالحياة النباتية من خلال جمعها نماذج من أوجه البيئات الطبيعية المختلفة للنباتات كالبيئة الصحراوية والجبلية والأودية المنتشرة وغيرها من البيئات، "فالساحة الجزائرية تحتوي على عدد هائل من النباتات العلاجية التي منها من لا توجد في أماكن أخرى من العالم خاصة النباتات المتواجدة في صحرائنا الكبرى"15.

وقد اعتمد الجزائريون في علاجاتهم الشعبية على إحدى الطرق التالية:

1- التداوي بالأعشاب:

بلاد الجزائر غنية جدا في أعشابها الطبيعية المتنوعة لما تحتلها من مساحات واسعة ومناخات متنوعة بحرية، قارية، صحراوية، ولما تتمتع به من دفء و سطوع شمسي وطقس جميل، وتربة مختلفة وخصبة للغاية في معظمها. ولاشك أن لهذه المناخات والتربة من أثر بالغ ليس فقط على شدة التنوع النباتي ولكن أيضا على تركيب النباتات وإعطائها المميزات الخاصة. وقد دلت التجارب أن نباتات المناطق المعتدلة أكثر فعالية وأغنى في العناصر المفيدة من نباتات المناطق الباردة. كما أثبتت الدراسات العديدة أن بالجزائر ما لا يقل عن 3500 نوع من النباتات، منها ما تعود إلى المناخات الحارة ومنها ما تعود إلى المناخات المعتدلة، وأن من بين هذه الثروة النباتية ما لا يقل عن 500 عشبة متداولة بين الأهالي في الطبابة ومعروفة لدى السكان منها ما يقارب 100 عشبة طبية نجدها تباع لدى العشابين في الأسواق، خاصة الأسواق الأسبوعية في الأرياف أو في دكاكين العشابين بالمدن¹⁶. ومن هذه الأعشاب الشايح، الحلبة، العرعار...

2- الحجامة:

ومن العلاجات الشعبية المتداولة في الجزائر هي الحجامة والتي تعد أحد أبرز فروع الطب التقليدي التي عرفها الإنسان منذ مئات السنين. وتستخدم الحجامة لتحديد الدم عند الإنسان وإبقائه نظيفاً، "فهي عبارة عن استخراج كمية من دم المريض لعلاج بعض الأمراض مثل ضغط الدم، علاج أمراض الشلل، علاج الصداع، علاج أمراض العيون"¹⁷.

وللحجامة نوعان حجامة وقائية يحجم بها من أجل الوقاية من الأمراض وحجامة علاجية وتستخدم لعلاج المرضى وتخليصهم من آلامهم وأوجاعهم. وتعتبر الحجامة من أكثر الممارسات الشعبية المستخدمة في الشفاء من بعض الأمراض، وقد انتشر استخدامها في المجتمعات العربية، وورد ذكرها في العديد من كتب الطب القديمة.

ومما جدير بالذكر أن الحجامة تعتبر من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وحكمته في الشفاء، إذ قال: "الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشربة محجم، وكية نار. وأنا أنهي أمتي على الكي"¹⁸.

3- الكي أو الوسم:

يعتبر الكي من الممارسات الشعبية القديمة لعلاج بعض الأمراض العضوية بالنار والحرارة، وقد اعتمدها الأقدمون بشكل واسع، حيث كانوا يجرون الكي بقضبان حديدية مجهزة بقبضة خضبية ومنتھية بأشكال مختلفة، وبعد أن تحمى هذه القضبان على النار حتى تصير بلون أحمر مبيض أو أحمر قاتم تكوى بها النواحي المختلفة لجسم المريض¹⁹.

فلعلاج داء المفاصل مثلاً يمسك المعالج بموس غير حاد وبعدها يوضع على النار ويوضع على مكان الألم أو المرض بحيث تظهر عليه آثار الكي على شكل مستقيم، ثم بعدها يقوم المعالج بقراءة آيات من الذكر الحكيم، ويجب ألا تستغرق هذه العملية أكثر من عشر دقائق.

أما في الجزائر، يعد العلاج بالكي أحد أشكال التداوي الشعبي الشائع بين أهالي وسكان المنطقة، بحيث يلجأ العامة والخاصة من الناس إلى هذه الطريقة لعلاج أمراض شتى أهمها داء المفاصل، وعرق النسا وإيقاف النزيف الدموي.

وفي العصر الحاضر لازال الطب يستخدم الكي في علاج بعض الحالات المرضية لاسيما في حالات قطع نزيف الأوعية الدموية، وإزالة الأورام والخراجات الصغيرة التي تظهر في الجسم²⁰ بحيث تحرق الكاويات الأنسجة وتفقد ماءها وتفكك الخلايا العضوية المركبة لها. فيمكن عندئذ القول بأنه في هذه الحالة يعتبر الطب الحديث امتدادا للطب الشعبي.

4-التجبير:

هو طريقة علاجية تقليدية يتم من خلالها إعادة العظام المكسورة لمكانها ومساعدتها على الالتئام والالتحام من خلال عملية بسيطة يقوم بها المجرب لإصلاح الكسر.

حيث يوجد أناس ماهرون في هذه العملية، ويقومون بإجرائها بطريقة محكمة، مستخدمين ألواحاً خشبية تلتصق على جانبي الجزء المكسور، بالإضافة إلى بعض المواد كصفار البيض، ثم تربط بطريقة محكمة، ومن الملاحظ أن هذا التجبير لم يزل يمارس في

حالات الكسور في الوقت الحالي رغم انتشار العلاج الحديث للأمراض المختلفة، وذلك عائد إلى النتائج التي حققها وما يزال يحققها هذا النوع من الطب الشعبي²¹. وللتجبير دور كبير ويطلق عليه التجبير العربي، وهو يستخدم إلى يومنا هذا في المجتمع الجزائري حيث يوجد الكثير من المجبرين ذوي الخبرة الطويلة المشهود لهم بالكفاءة، وقد توارثوا هذا العمل عن آبائهم.

5- العسل:

يستخدم العسل كغذاء ودواء فقد ورد ذكره في القرآن الكريم "فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ"²² وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وله فوائد عديدة ذكرها العلماء القدماء والمحدثون وخاصة ما يتعلق بأمراض الكبد والجهاز الهضمي الرئة وتطهير الجروح..

ولقد ثبت لدى العلماء المتخصصين أن مرض السرطان معدوم بين مربي النحل المداومين على العمل بين النحل ولكنهم حاروا في تفسير هذه الظاهرة، فمال بعضهم إلى الاعتقاد بأن هذه المناعة ضد مرض السرطان، لدى مربي النحل.. كردها إلى سم النحل.. الذي يدخل مجرى الدم، باستمرار نتيجة لما يصابون به من لسع النحل أثناء عملهم، ومال آخرون إلى الاعتقاد بأن هذه المناعة هي نتيجة لما يتناوله مربو النحل من العسل المحتوي على كمية قليلة من الغذاء الملكي - ذي الفعالية العجيبة- وكمية أخرى من حبوب اللقاح، ولقد مال كثير من العلماء إلى الرأي الثاني.. خصوص بعد ما تم اكتشافه من أن نحل العسل، يفرز بعض العناصر الكيماوية على حبوب اللقاح، تمنع انقسام خلاياها.. وذلك تمهيدا لاختزانها في العيون السداسية. إن هذه المواد الكيماوية الغريبة التي تحد من انقسام حبوب

اللحاق، والتي يتناولها الإنسان بكميات قليلة جدا مع العسل لها أثر كبير في الحد من النمو غير الطبيعي لخلايا جسم الإنسان.. وبالتالي منع الإصابة بمرض السرطان²³.

إن المجتمع الجزائري يزخر بهذا النوع من العلاج (الطب الشعبي)، الذي يجد له مكانة في كل بيت وعند كل أسرة والذي يعرف بطب الجدة والأم، هذا العلاج بالرغم من تعاقب الأزمنة عليه مازال يجد له مكانة بين أفراد مجتمعنا اليوم، فهو جزء من تراثنا الوطني والديني معا، وهو المرجع الأول للفرد حين يعاني من العلة أو المرض، وهذا العلاج يبدأ استعماله منذ نشأة الفرد الأولى وهو رضيع ويصاحبه عبر كل مراحل حياته إلى غاية بلوغه سن الشيخوخة، ويعمل على المحافظة عليه وانتقاله من جيل إلى جيل²⁴.

ثالثا: تزايد الاهتمام العالمي بالطب الشعبي

بدأت حكومات العالم تهتم بالطب الشعبي أو ما يطلق عليه حديثا (بالطب البديل أو التكميلي) فقد حدث اهتمام زائد بالطب الشعبي، وقد أنشأت الكليات والمعاهد والمدارس المتخصصة لتدريس هذا الطب. وتم المزج بين المدرستين في الطب (مدرسة الطب الشعبي (البديل) ومدرسة الطب الغربي الحديث) وإذا نظرنا إلى دول مثل الصين والهند واللاتين يبلغ عدد سكانهما أكثر من مليارين من البشر نجد أن معظم سكان هذه البلاد يعتمدوا اعتمادا كليا على الطب الشعبي (البديل) في العلاج من معظم الأمراض وقد أنشأوا العديد من الكليات والمعاهد المتخصصة لتخريج أطباء متخصصين بهذا المجال. وبدأت هذه المؤسسات في العودة لطب الأعشاب وإقامة محطات تنمو فيها الأعشاب الطبية

في ظروف متحكم فيها. وباتت صيدليات بأكملها في أوروبا لا تبيع سوى الأعشاب والنباتات الطبية، وخصوصاً للمرضى الذي أخفقت كل الوسائل الأخرى في علاجهم.

واليوم رغم التحسن في الخدمات الصحية وبرغم توافر المراكز العلاجية يعود الناس إلى رحاب الطبيعة التي كانت ولا تزال الصيدلية الأولى للإنسان بحثاً عن صحة أفضل رغم ما وصل إليه الطب وتصنيع الدواء الحديث من تقدم حيث يشهد العالم في الوقت الحاضر دعوة إلى الاهتمام بالأعشاب والنباتات الطبيعية واستخدامها في صناعة الأدوية الحديثة.

رابعاً: حان الوقت للدمج والتكامل بين الطب الحديث والطب الشعبي (التقليدي)

ولما كانت بعض بلدان العالم قد حققت عدداً من التجارب الناجحة لتحقيق التكامل بين نظم الطب الشعبي (التكميلي أو البديل) وبين نظام الطب الحديث. فقد رأت المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية أن الوقت قد حان لعقد ندوة عالمية للبحث في تحقيق التكامل بين هذين النوعين من الطب، وبالفعل قد استجابت لدعوتها منظمة الصحة العالمية ممثلة بمكتبها الإقليمي للشرق المتوسط، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).

ومن توصيات التي خرجت بها هذه الندوة التي شارك فيها كبار الفقهاء والأطباء والصيادلة والمختصين في عدد من فروع الطب الشعبي (التكميلي أو البديل) والعلماء من علوم إنسانية أخرى:

- دعوة الدول الإسلامية إلى الاعتراف من حيث المبدأ بالطب الشعبي أو التكميلي أو البديل باعتباره طباً حليفاً وريفاً للطب الغربي (الحديث)، والعمل على وضع الإجراءات التشريعية والتنفيذية اللازمة لاستيعاب المتفرسين من مؤزولي ومؤزولات الطب البديل، والاستفادة منهم في توسيع نطاق التغطية بالرعاية الصحية الأولية، مع ضمان التزامهم بالضوابط العلمية والأخلاقية للممارسة.
- دعوة هذه الدول إلى تبني استراتيجية منظمة الصحة العالمية للطب الشعبي باعتبارها إطاراً لإعداد وتطوير البرامج الوطنية للطب الشعبي.
- دعوة هذه الدول إلى إجراء التقصّيات اللازمة لاستطلاع جميع القدرات والطاقات والإمكانيات البشرية والمادية في هذا المجال، بما في ذلك أنماط وأعداد ومؤهلات الممارسين، والنباتات الطبية المتوفرة بشكل طبيعي في كل بلد، والأشكال الصيدلانية المستحضرة منها، وكذلك استقصاء الضوابط والقواعد المستعملة للتحقق من جودة هذه المستحضرات ونجاعتها ومأمونيّتها، وضمان إتباع قواعد الممارسات التصنيعية الجيدة.
- دعوة هذه الدول إلى اتخاذ التدابير اللازمة لحماية وحفظ حقها المشروع في استغلال المعارف التراثية وسائر مواردها الطبيعية، وتلافي ما يمكن أن يحدث من سوء استخدام لبنود اتفاقية حماية الملكية الفكرية، وكذلك حماية الطب الشعبي من الوقوع في حبال الاستغلال التجاري.

- دعوة ممارسي وممارسات الطب الشعبي في كل بلد إلى تأسيس جمعية مهنية يكون في طليعة مهامها العمل على تحقيق التزام جميع العاملين في هذا الحقل بالضوابط العلمية والأخلاقية لمزاولة المهنة.
- دعوة كليات الطب وسائر كليات العلوم الصحية إلى تضمين مناهجها مقررًا للتعريف بالطب الشعبي وأنماطه المختلفة، ودعوة وزارات التربية والتعليم إلى إعطاء فكرة كافية عن الطب الشعبي في مناهج المدارس الثانوية، ودعوة وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية إلى تقديم صورة واضحة وصحيحة عن الطب الشعبي بمختلف أشكاله لتثقيف الجمهور.
- العمل على مواكبة الطب الشعبي للمستجدات في العالم من خلال إصدار المنشورات المناسبة، وإقامة دورات صقل المعلومات، ودورات التعليم المستمر للممارسين في هذا المجال.
- العمل على إعداد قوائم بالنباتات الطبية المستعملة في كل بلد، مع محاولة الالتزام بتسمية نباتية موحدة لأكثر هذه النباتات استعمالاً، والتشجيع على تبادل هذه المعلومات وأمثالها بين ممارسي وممارسات الطب الشعبي في البلدان المختلفة، وكذلك تبادل الزيارات وإقامة الندوات واللقاءات العلمية في ما بينهم.
- تشجيع البحث العلمي في مجال النباتات الطبية وسائر مجالات الطب الشعبي للنهوض بهذا الطب وتطويره باستمرار.

- دعوة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية إلى العمل على تعميم الأبحاث العلمية القيّمة التي أسهم بها المشاركون في هذه الندوة، من مختلف الثقافات والبلدان، ونشر هذه الأبحاث على أوسع نطاق من خلال المطبوعات ووسائل الإعلام والشبكة الإلكترونية العالمية.
 - دعوة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية إلى القيام بدور حلقة الوصل بين المهتمين بتحقيق التكامل بين الطب الشعبي والطب الحديث، وضمان مواصلة تنفيذ توصيات هذه الندوة على نطاق واسع.
 - دعوة الهيئات الثلاث المنظمة للندوة إلى إحياء الثروة التراثية العظيمة للعالم الإسلامي في مجال الطب، والتعريف بها وتعميمها ونشر ما يمكن نشره منها وترجمته، والاستفادة من هذه الثروة في ترسيخ النظرة الشمولية للإنسان الصحيح والمريض، وتعزيز الصحة بإتباع أنماط الحياة الإسلامية، والاهتمام بالبُعد الروحي للصحة.
 - دعوة الهيئات الثلاث إلى إنشاء فريق عمل يكون من مهماته وضع دلائل إرشادية تساعد الحكومات والممارسين على إعداد التشريعات والتنظيمات في مجال مزاوله المهنة، والترخيص، والتصنيع، والاستنبات، وسائر ما يتعلق بالطب الشعبي²⁵.
- وبعد هذا كله وبعد هذه الصحوة العالمية نجد أن المتخصصين في الطب الشعبي ليسوا ضد الطب الغربي ولا يدعون إلى ترك الطب الحديث والتوجه كلية إلى الطب الشعبي أو البديل فالطب الغربي له أياد بيضاء في التشخيص وفي العلاج والوقاية من الكثير من الأمراض بالتطعيمات المختلفة، وإنما ينادون بإتباع كل ما يساعد في علاج الأمراض وتحقيق

الشفاء بوسائل طبيعية وبأقل التكاليف دون أعراض جانبية، فدعوتهم هي دعوة للتكامل والتعاون بين الأنواع المختلفة من الطب لما يحقق هدف الشفاء وحصول العافية للإنسان.

خاتمة:

إن ممارسة العلاج الشعبي تعتبر في حد ذاتها البداية الأولى لتطور الطب الحديث، فالمؤكد أن تاريخ الطب الشعبي هو تاريخ الطب ذاته. فالتاريخ سلسلة طويلة من المحاولات والأخطاء، بدأت مع فجر الإنسانية، ولم يكتب فصل الختام فيها بعد²⁶.

إن الطب الشعبي ممارسة ظهرت لتبقى، وأن محاولات التحديث وبرامجه الصحية لم تستطع في كثير من الحالات إثبات جدارتها في ساحة التنافس علاوة على تجسيد الطب الشعبي للسلوك الاعتقادي والتراث الشعبي الراسخ وبالتالي فلا يزعزعه إلا قوة أعتى منه وأكفأ. إن ميكانيزمات بقاء الطب الشعبي في الجزائر أقوى من ميكانيزمات القضاء عليه.

المراجع:

- نجلاء عاطف خليل، في علم الاجتماع الطبي ثقافة الصحة والمرض، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 2006، ص 256-257.
- ¹ نفس المرجع، ص 258-259.
- ¹ محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع الطبي، ط1، دار المسيرة، عمان، 2008، ص 81.
- ¹ نجلاء عاطف خليل، مرجع سابق، ص 260-261.
- ¹ نفس المرجع، ص 261.
- ¹ شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، الكويت، 1981، ص 617.
- ¹ زينب عباس عيسى، الطب الشعبي، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 12، 2010، ص 80.
- ¹ حسن الحولي، المدينة والريف في مجتمعات العالم الثالث، دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1982، ص 12.
- ¹ موفق الشطي، السفر الأول من تاريخ الطب، دمشق، الطبعة الأولى، 1956، ص 13.
- ¹ موسوعة عباقرة الإسلام، في الطبو الجغرافية والتاريخ و الفلسفة، دار الفكر العربي، ص 10.
- ¹ هو ابن حنم التيمي الربابي اشتهر بالطب حتى حاز على شهرة عظيمة فاقت شهرة الطبيب الحارث بن كلدة.
- ¹ بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول: في العصر الجاهلي، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1959، ص 65.
- ¹ من هذه المحاوره وهي طويلة أن كسرى قال له: كيف بصرك بالطب، قال نھيك، قال فما الداء والدوى، قال إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يفني البرية ويهلك السباع في خوف البرية، قال فما الحمزة التي تصطلم منها الأدوية قال هي التخمّة، إن بقيت في الجوف...
- وبعد أن استطاع الحارث بن كلدة اجتياز هذا الامتحان الشفهي، ختم كسرى هذه المحاوره كالتالي: قال كسرى لله درك من أعرابي، لقد أعطيت علما، وخصصت فطنة وفهما، وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به.

¹ خليل حسن ابراهيم الحموي العشاب، الأمراض النسائية وطرق معالجتها بالأعشاب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ص 10.

¹Rachida Mered – Chiali, Contribution à la connaissance de la pharmacie traditionnel algérienne , Les éventaies des Grand-Alger, Thèse pour le doctorat d'Etat en pharmacie, Université d'Alger, 1971, p 102 .

¹ عبد القادر الحليمي، النباتات الطبية في الجزائر، منشورات برقي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2004، ص 04.

¹ عبد المحي محمود حسن صالح، الصحة بين البعدين الاجتماعي والثقافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 70.

¹ الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب: باب الشفاء في ثلاث، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الطب: باب الكي، وأخرجه أحمد في مسنده.

¹ علي أبو الخير، التداوي بالأعشاب والنباتات ودور العلاج الغذائي، دار الخير، بيروت، ط2، 1999، ص 17.

¹ شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، الطب النبوي تعليق: عبد الخالق، ج1، العلاج، دار الكتب، الجزائر، د.ت، ص 114.

¹ إبراهيم عبدالمهدي المليحي، سلوى عثمان الصديقي، الخدمة الاجتماعية في المجال الطبي، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2004، ص 28.

¹ الآية 69 من سورة النحل.

¹ خالد جاد، موسوعة الطب البديل، دار الغد الجديد، القاهرة – المنصورة، ط1، 2006، ص 191.

¹ نعيمة عيزل، الطب الشعبي في المجتمع الجزائري –دراسة ميدانية-، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2004-2005، ص 264.

¹ الندوة الطبية حول دمج الطب البديل في الطب الحديث، مجلة الرائد، العدد 239، نوفمبر 2002.

¹ محمد الجوهري، علم الفولكلور، ج2/، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 474.